

الأساس في الطب النفسي الافتراضات الأساسية:

الفصل السادس:

ملف اضطرابات الوعي (35)

تعرفني على العلم - أكثر - من النقد (2 من ؟)

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD30815.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2015/08/30
السنة الثامنة - العدد: 2921



مقدمة:

استكمالاً لما جاء في نشرتي الأسبوع الماضي أنه: "يبدو أن تعرفي على ماهية الحلم بدأ من اجتهاداتي النقدية أكثر من خبرتي المهنية، طبعاً فضلاً عن خبراتي الشخصية التي لم توصلني إلى ما توصلت إليه عبر النقد والممارسة، وبعد أن اقتطعت بعض اجتهاداتي النقدية، في هذا المجال، بدءاً من "الأفيال" لفتحي غانم سنة 1983 وحتى وصولي إلى أول محطات الأحلام إبداعاً مع نجيب محفوظ، مروراً ببعض تجليات الغيطاني الأقرب إلى الحلم، مع إشارة إلى جارثيا ماركيز في مائة عام من العزلة، أقول بعد هذه المقدمة انتهيت إلى أن قلت:

"أتوقف هنا قبل الدخول إلى نجيب محفوظ الذي اعتبرت مواكبتى لمسيرته العلمية الإبداعية من أهم ما هداني إلى طبيعة الحلم، والتي أعتقد أيضاً أنها سوف تستغرق أكثر من نشرة" وهأنذا أحاول أن أوصل، إلى أنني وجدت أن هذه العبارة تحتاج إلى تعديل يقول: "..... اعتبرت مواكبتى لمسيرته العلمية الإبداعية من أهم ما دعم لي فروضى عن طبيعة الحلم"

وذلك على الوجه التالي:

بدأت علاقتى بفهم مستويات الوعي، وبالذات فيما يتعلق بالحلم (والإبداع) من منطلق أطروحتى عن الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع[1].

وفيما يلي بعض مقتطفات من الجزء الأول من هذه الأطروحة، وهى التى سبق الإشارة إليها تفصيلاً فى علاقة الإدراك بالحلم، ولكننى أعرضه ذلك هنا وأنا أقترّب من عرض كيف أن المبدع يستطيع أن يعيش وعى الحلم مسئولاً هادفاً قادراً، فيقلبه إلى وعى الإبداع يفرز من خلاله نصوصاً أقرب إلى الشعر، سواء سماها كذلك، أى "أحلام"، (مثلاً فعل نجيب محفوظ، بحدسه الفائق)، أم ترك الأمر للنقد لاحقاً.

هذا هو ما اكتشفته بالصدفة وأنا أقوم بمراجعة ما سبق لي نقده من أعماله، وخاصة ما أسماه هو شخصياً باسم "الأحلام"، أو "فيما يرى الناظم"[2].

الفكرة المحورية فى هذه المداخلة الباكورة مبنية على نظرتى "النظرية الإبداعية التطورية" التى يبنى عليها كل ما ورد عن الحلم والنقد والشعر والإبداع.

موجز المداخلة:

تقدم هذه المداخلة فرضاً يقول بأن الحلم هو نشاط معرفى، يقوم بوظيفة تنظيمية أقرب إلى الإبداع، سواء تم ذلك مع إعلان تأليف حلم يرويه الحالم عند استيقاظه، أم ظهرت نتائجه المعرفية والتنظيمية تؤكد كفاءته لهذا النشاط

يبدو أن تعرفي على ماهية العلم بدأ من اجتهاداتي النقدية أكثر من خبرتي المهنية

"..... اعتبرت مواكبتى لمسيرته العلمية الإبداعية (نجيب محفوظ) من أهم ما دعم لي فروضى عن طبيعة الحلم"

لكننى أعرضه ذلك هنا وأنا أقترّب من عرض كيف أن المبدع يستطيع أن يعيش وعى الحلم مسئولاً هادفاً قادراً، فيقلبه إلى وعى الإبداع

الحلم هو نشاط معرفى، يقوم بوظيفة تنظيمية أقرب إلى الإبداع، سواء تم ذلك مع إعلان تأليف حلم يرويه الحالم

مُعد استيقاظه، أم ظهرت
نتائج المعرفة والتنظيمية
تؤكد كفاءة أدائه لهذا
النشاط المنتظم المعهود،
كجزء من الإيقاع الحيوي
الشامل

المنتظم المعهود، كجزء من الإيقاع الحيوي الشامل. يستتبع ذلك إعادة النظر في مستويات الحلم من أعرق حركية التنشيط البيولوجي الإيقاعي الراتب، حتى النقاط بعض آثار هذا التنشيط من معلومات هي مادة صياغة الحلم المحكى قبيل اليقظة (هذا إذا حكاها الحالم أصلا)، وما بين هذا وذاك تقع مستويات وسطى من التنشيط العشوائى غير المعلن إلى إعادة التنظيم الإبداعي، مع احتمال تزييف بديلٍ بخيالٍ مصنوع، يحل محل إبداعية الحلم.

كما تتناول المداخلة مقارنة قياسية بين مراحل إبداع الحلم، ومرآة إبداع الشعر خاصة، مع إشارة للإبداع القصصى (والروائي)، كذلك تمتد المقارنة لموازاة قراءة الحلم بالنقد الإبداعي، بدلا من تفسيره الملتزم بقواعد من خارجه. تماما مثل التذكرة برفض محاولة تقييم النص الأدبي بعلمنة نقدية تقيسه بمقاييس من خارجه، مهما بدت مُحكمة.

وأرى لزاما أن أعيد طرح منطلق هذه الدراسة مع بعض المقتطفات:

منطلق الدراسة

هذه الدراسة هي من منطلق شخصى خبراتى [3] أساسا، حيث تتحدد أبعاد هذا المنطلق من ممارستى لفن اللأم، أو ما أسميته فن المواكبة العلاجية [4]، وأخيرا اسميته "نقد النص البشرى" ومن محاولاتى الإبداعية المتواضعة فى مجالات القص، وقرض الشعر، والتنظير فى علم السيكوباتولوجي، وأيضا انطلاقا من موقفى بوصفى إنسانا "يحلم"، ويتعلم، ويقرأ النصوص الأدبية ناقدا بقدر ما يقرأ النصوص البشرية فى تعريها وتحديها فيما يسمى: الممارسة الإكلينيكية توصيفا وعلاجيا.

الإيقاعية الحيوية:

على أن أشير فى عجالة إلى المنطلق البيولوجي [5] الذى أتناول من خلاله ظاهرتي: الحلم والإبداع معا.

1- تمثل ظاهرة تناغم الإيقاع الحيوي [6] امتدادا على متدرج يبدأ مما هو دون الذرة إلى الكون الأعظم.

2 - تقع الظاهرة البشرية فى موقع متوسط على هذا المتدرج الإيقاعى الحيوي، حيث تعد البشرية ظاهرة حيوية نابضة، تمثل كونا أصغر متاخلا فيما هو أعظم من أكون، حاويا لما هو أصغر.

3- يتجلى بعض نتاج ذلك فى نوع الإبداع الذى يظهر فى صورته المختلفة، والذى يصنف فى النهاية بحسب اللغة المستعملة (الأدوات - والأبجدية)، أو النتاج الظاهر، أو كليهما، أو لا يسمى كذلك أصلا حين يكون إبداعا للكائن الحى بتحقيق تغيير أرقى مهما ضؤل حجمه، ومهما عجزنا عن رصده بالوعى الظاهر، ومهما اختلفت تسميته.

.....

هكذا يمثل الحلم إبداعا بيولوجيا منتظما على مستوى الدورة الليلنهاريّة (اليوماوية).

ج- إن الناتج الإبداعي (وأحد صورته الإبداع الأدبي أو الشعر أو التشكيل) هو الصورة المتاحة لعطاء هذه العملية الحيوية، وهو الصورة التى تتجلى بالأدوات والمهارات الممكنة: على مستوى فائق من الوعى والإرادة.

أرجو ألا ينزعج القارئ من فرط هذا الإيجاز المبدئى، أو من إقحام كلمات مثل المخ والإيقاع الحيوي، فى حديث عن النقد والإبداع، ذلك أن المخ بأعقد ماوصل إليه تركيبيا ووظيفيا هو الممثل الأول للوجود البشرى - و إن كان ليس الأوحد، بعد أن استعاد الجسد دوره المحورى فى الإسهام

تمثل ظاهرة تناغم الإيقاع
الحيوي [6] امتدادا على
متدرج يبدأ مما هو دون
الذرة إلى الكون الأعظم.

تقع الظاهرة البشرية فى
موقع متوسط على هذا
المتدرج الإيقاعى الحيوي،
حيث تعد البشرية ظاهرة
حيوية نابضة، تمثل كونا
أصغر متاخلا فيما هو أعظم
من أكون، حاويا لما هو
أصغر.

يمثل الحلم إبداعا بيولوجيا
منتظما على مستوى الدورة
الليلنهاريّة (اليوماوية).

إن الناتج الإبداعي (وأحد
صورته الإبداع الأدبي أو
الشعر أو التشكيل) هو
الصورة المتاحة لعطاء هذه
العملية الحيوية. وهو الصورة
التي تتجلى بالأدوات

والمهارات الممكنة: على مستوى فائق من الوعي والإرادة

في المعرفة، ومن ثمَّ في جدل الإبداع. وحدة "المخ/الجسد" [7] هي بمثابة "الوجود الجامع" في كل نتاج إبداعي، سواء كان استمراراً في نمو خلق، أم حلماً معزراً ..، أم جنوناً مقتحماً فاشلاً (إبداعاً مجهضاً)، أم إضافة أصيلة متميزة (النتائج التشكيلي بكافة تجلياته) . وسأكتفى بالإشارة إلى تنظيم نشاط الحلم أساساً، مع إشارة محدودة إلى علاقة بعض ذلك بالإبداع:

- الحلم هو نشاط مناوبٍ تنظيمي غائي "لمستوى آخر" من الوعي البشري.
- (و"غائية" الحلم تعني هنا أنه ليس عشوائياً، كما أنه ليس أساساً "تحقيق رغبة" كما شاع عن فرويد خطأً وصواباً، وإنما أعنى بالغائية هنا "تحقيق برمجة تنظيمية مكتملة لغائية اليقظة في تجليات الوجود" [8].
- الحلم يحاول بانتظام إيقاعي أن يُحكم التناغم، ويعزز التعلّم، في حالة من وعي آخر، نشط - متبادل [9]
- يقوم الإبداع بالمحاولة نفسها، إلا أنه ليس دورياً بالضرورة، كما أنه يتم بقصد إرادى نسبي بشكل ما، و هو يتم في حالة "وعي فائق" (جدليّ مشتمل، لا وعى عادى، ولا وعى بديل).

2 الحلم: إبداع الشخص العادى

يتواتر الحديث عن الحلم، في سياق النقد، بشكل وصل إلى أن يطلق اسم: "الأدب الحلم" [10] على بعض أشكال الأدب. وقد بلغت الثقة بمن يستعملون هذا التشبيه درجة توحى - بشكل ما- بأن المشبّه به (الحلم) هو ظاهرة واضحة المعالم، تسمح بهذا القياس، وتبرر تأصيل حضور الحلم وعيا تركيبياً غائياً دالاً، والأمر غير ذلك كما تابعنا حتى الآن!!!

وبعد

أتوقف هنا اليوم،

وسوف أرجع لمزيد من الاقتطاف من الأطروحة لاحقاً، وشرح ما ينبغي ما أمكن ذلك، ولكننى أشير الآن بصفة مبدئية إلى مايلي:

عند دراستى لإبداع أحلام نجيب محفوظ المنشورة، وجدت أنه بحدسه وقدراته الإبداعية، استطاع أن يُحْضِرَ "وعى الحلم" فى بؤرة "وعى الإبداع"، وبالتالي أن يمسك بناصية توجيهه بتلقائية المبدع أساساً دون التخلي عن طبيعته الحلمية.

هكذا وصل لى أنه يقوم بتكبير ما يقوم به الشخص العادى حين يبدع أحلامه قبيل استيقاظه، لكن قبل أن يسطحها (الشخص العادى) بالحكى، أى قبل أن تفسدها الذاكرة أو تزيّفها الإضافة وتلميع الحكمة، وهو (محفوظ) مع هذا التكبير لا يفقد الإمساك بخيوطه، ومواصلة تشكيلها مجتمعة دون أن تفقد طبيعتها الحلمية.

مررت بعد ذلك بخبرة فى العلاج الجمعى، عرضت بعضها فى نشرات سابقة، وهو أن أدعو أشخاصاً عاديين (مرضى ومدربين وشخصى) إلى أن يقوموا بتوجيهه علاجى سيكودرامى بلعبة أسميتها "تعمل حلم" (نشرة: 2010-9-22، ونشرة 2013-7-28، ونشرة 2013-7-29)، وقد جرت المرة تلو الأخرى بتلقائية لم أتوقعها، وبألية شديدة الحساسية وهى التركيز المطلق على "هنا والآن" أثناء التداعى، ونجح أغلبهم نجاحاً يؤكد ما ذهبت إليه فى فروضى [11]، وما ذهب إليه محفوظ فى إبداعه .

وهذا ما سوف نحاول استكمالها بدءاً من نشرة باكر.

أن المخ بأعقد ماوصل إليه تركيبياً ووظيفياً هو الممثل الأول للوجود البشرى - وإن كان ليس الأوحى، بعد أن استعاد الجسد دوره المحورى فى الإسهام فى المعرفة، ومن ثمَّ فى جدل الإبداع

وحدة "المخ/الجسد" [7] هى بمثابة "الوجود الجامع" فى كل نتاج إبداعى، سواء كان استمراراً فى نمو خلق، أم حلماً معزراً ..، أم جنوناً مقتحماً فاشلاً (إبداعاً مجهضاً)، أم إضافة أصيلة متميزة (النتائج التشكيلي بكافة تجلياته)

الحلم هو نشاط مناوبٍ تنظيمى غائى "لمستوى آخر" من الوعي البشرى

الحلم يحاول بانتظام إيقاعى أن يُحْكم التناغم، ويعزز

[1] [1] - يحيى الرخاوى: "الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع" مجلة فصول (المجلد الخامس-العدد الثانى-
1985).

[2] - يحيى الرخاوى: "عن طبيعة الحلم والإبداع دراسة نقدية فى: "أحلام فترة النقاهاة" نجيب محفوظ"،
دار الشروق سنة 2011، وأيضا "رأيت فيما يرى النائم" (نجيب محفوظ) - عدد أكتوبر 1983 - مجلة
الإنسان والتطور.

[3]- "شخصى" بالمعنى الفينومينولوجى، وليس الذاتى بمعنى "الشخصنة Personification، وهو يشمل أن
تقل جرعة الذاتية الإسقاطية، لحساب استيعاب الموضوع فى وحدة "الذات/الموضوع الكلية"، التى تفرز الخبرة
بمقدار نجاحها فى التخلص من الشخصنة والإسقاط.

[4]- يحيى الرخاوى: (1979) دراسة فى علم السيكوباتولوجى: 698- 702، 788-790، 783-784.
القاهرة. جمعية الطب النفسى التطورى.

[5]- أعنى بكلمة "بيولوجي" طوال هذه الدراسة، المعنى الأشمل للكلمة، وهو "علم الحياة"، بادنا بما هو
دون الذرة، شاملا التفاعل البيوكيميائى، حتى الوجود الواعى فى حالة الظاهرة البشرية - مارا
وتجليات السلوك - وعلى هذا فلا بد من الانتباه إلى رفض معنى كلمة "بيولوجي" الضيق الذى شاع بسوء
الاستعمال بوصفها تعنى ما هو كيميائى أو فسيولوجى. إن هذا المعنى الشامل لكلمة بيولوجى، هو الذى
استعملته فى أغلب كتاباتى السابقة، ويبدو هذا التحديد ضروريا وبخاصة فيما يتعلق بما أسميته فيما بعد، هنا
فى هذه الدراسة، "الواقعية البيولوجية". إن جاك لاكان وهو يرفض بحدّة ما هو بيولوجى عاد يعلن أو يقترح
أنه ينتمى إلى ما أسماه البيولوجيا غير البيولوجية Non-biological Biology، كما أن ميلانى كلاين (ممثلة
للمدرسة الإنجليزية فى التحليل النفسى)، رفضت بيولوجية سيجموند فرويد بما تشير إليه من أولوية الغرائز
ودفعها، لتحل محلها "العلاقة بالموضوع" كأساس للنمو وفهم المسيرة البشرية فى السواء والمرض. إن مفهوم
البيولوجى فى هذه الدراسة وكما يتبناه الكاتب هو مفهوم تطورى نوعا وأفرادا.

[6]- الإيقاع الحيوى Biorhythm الذى هو محور هذه الدراسة هو كل عمليات التوازن الحيوى المنتظم
فى إيقاع نابض لا يتوقف، مع اختلاف وحدة الزمن: حيث تتراوح من الميكروثانية فى تفاعلات الكيمياء
الحيوية، إلى الملليثانية فى نشاط الإطلاق Firing النيورونى المنتظم، إلى الثانية الكاملة فى دورة القلب، إلى
تسعين دقيقة فى نشاط النوم النقيضى-الحالم-إلى الدورة الليلنهاريّة / اليوماوية / السركايدية Circadian، يوما
كاملا: نهارا وليلا واحدا، إلى دورات النمو المتعاقبة فى حياة الفرد Macrogeny، إلى جماع دورات النمو
الفردى Ontogeny إلى الطفرة فى تاريخ النوع كله Phylogeny.

إن الإيقاعية الحيوية Biorhythm هى دورية منتظمة - بالنسبة لنشاط المخ بالذات (الذى كان يبدو قبل
ذلك: إما كمشتبك توصيلات، أو مخزن معلومات) وذلك من أول الإطلاق النيورونى الدورى Periodical
Neuronal Firing إلى الجهد الفاعل Action Potential لمحور الخلية العصبية المفردة، إلى محصلة النشاط
الكهربى للمخ ككل. وقد أوردت كل هذه التفاصيل لأن هذا البعد الإيقاعى الحيوى هو المحور الأساسى الذى
تدور حوله الدراسة، وهو المحور الذى بنى عليه الكاتب نظريته المسماة "النظرية التطورية
الإيقاعية Evolutionary Rhythmic Theory لتفسير السلوك البشرى فى وحدة سيكوبيولوجية متصلة- فى
الصحة والمرض (يحيى الرخاوى: محاضرات مختارة فى الطب النفسى، الموقع www. Rakhawy.org،
وأيضا دراسة فى علم السيكوباتولوجى: هامش 3)

[7]- هذا الاصطلاح "المخ/الجسد" هو تحديث أدخل بدلا من التركيز على "المخ" فى صورة الفرض الأولى
وإن كان استعمال لفظ المخ سيغلب حتما إلا أنه سوف يعنى دائما هذه الوحدة المشتملة "المخ/الجسد"، تأكيدا لما
كشف عنه العلم المعرفى الأحدث لدور الجسد فى التفكير والإبداع!

[8] - (دليل الطالب الذكى (للكاتب) الجزء الأول (1982) القاهرة ص94- 99 دار الغد للثقافة والنشر).

[9]- أستعمل كلمة الوعى هنا - مبدئيا - بمعنى تركيبى محدد؛ فهى تعنى أية: "منظومة بنيوية، متناغمة

أعنى بكلمة "بيولوجي" طوال
هذه الدراسة، المعنى الأشمل
للكلمة، وهو "علم الحياة"،
بادنا بما هو دون الذرة،
شاملا التفاعل البيوكيميائى،
حتى الوجود الواعى فى حالة
الظاهرة البشرية - مارا
بمختلف أشكال وتجليات
السلوك

الإيقاع الحيوى Biorhythm
الذى هو محور هذه الدراسة
هو كل عمليات التوازن
الحيوى المنتظم فى إيقاع
نابض لا يتوقف، مع اختلاف
وحدة الزمن

إن الإيقاعية الحيوية
Biorhythm هى دورية
منتظمة - بالنسبة لنشاط المخ
بالذات وذلك من أول
الإطلاق النيورونى الدورى
Periodical Neuronal
Firing إلى الجهد الفاعل
Action Potential لمحور
الخلية العصبية المفردة، إلى
محصلة النشاط الكهربى للمخ
ككل

في مستوى بذاته، تصبغ كل نشاط المخ وحركية محتوياته بصبغتها وقوانينها على كل المستويات ، كل في موقعه من تطور ودورات النشاط، وتبادل التنظيم"، وعلى ذلك فكلما الوعى هنا لا تشير بالضرورة إلى إدراك معرفى أو حسى فى حالة اليقظة، فتمّ "وعى النوم" و "وعى الحلم" و"وعى اليقظة". من هذا المنطلق أنبه إلى رفضى للاستعمال الشائع لكلمات مثل اللاوعى، واللاشعور (انظر للمؤلف دليل الطالب الذكي- الجزء الأول ص 235) هذا وقد تطور عندى مفهوم الوعى بعد ذلك حتى عدلت عن الاكتفاء بأن يكون الوعى بمثابة وساد للوظائف الأخرى، ذلك أنه ليس أرضية لمحتوى غيره، بقدر ما هو متداخل فاعل طول الوقت على مستويات متعددة متداخلة ومتبادلة ومتجالة معا.

[10]- أنظر مثلا: يحيى عبدالدايم: تيار الوعى والرواية العربية المعاصرة، "فصول"، المجلد الثانى، العدد الثانى 1982 ص 158، ثم انظر تعبير أدونيس "إنه يرفع الواقع إلى مستوى الحلم"، أو "فالأحداث التى تجرى فى هذا المسرح تشبه الأحداث التى تجرى فى الحلم"، "وهى لذلك كأحداث الحلم" (ص187) ثم "بل هو الحلم"، "الحلم هو ذلك الزمن الآخر الذى يختلف عن الزمن" (ص202) "أدونيس زمن الشعر"، دار العودة، 1979. ومؤخرا (2005) يمثل ما يصدره نجيب محفوظ تباعا بعنوان "أحلام فترة النقاهاة" نقلة مركزة متواصلة تسمح بتناول هذه الظاهرة بشكل تفصيلى، وبرغم أن نجيب محفوظ لجأ إلى هذا الشكل مضطرا (مع الاعتراف بأن إرهاباته ظهرت فى أعمال سبقت، وخاصة أصداء السيرة الذاتية)، إلى أن طبيعة هذا الإبداع الأخير تؤيد الأطروحة الحالية بشكل يكاد مباشرا ، برغم أن معالمها (معالم الأطروحة) قد ظهرت فى إنتاج محفوظ قبل عقدين على الأقل من توالى صدور أحلام فترة النقاهاة، وسوف نعود لذلك لاحقا فى المتن، وفى الملحق، وفى الهوامش على حد سواء.

[11] - بدهاة لا يوجد أى شخص فى هذا التجربة ، يمكن أن يسمى مبدعا، فبعضهم لا يفك الخط، وأغلبهم متوسطى القدرات المعرفية، والمستوى التعليمى ، وسوف نعرض لذلك فيما بعد

هذا الاصطلاح "المخ/الجسد" هو تحديث أحدهم بدلا من التركيز على "المخ" فى صورة الفرض الأولى

كلمة الوعى هنا لا تشير بالضرورة إلى إدراك معرفى أو حسى فى حالة اليقظة، فتمّ "وعى النوم" و "وعى الحلم" و"وعى اليقظة".

*** **** **



النشرة اليومية لـ "الإنسان و التطور"

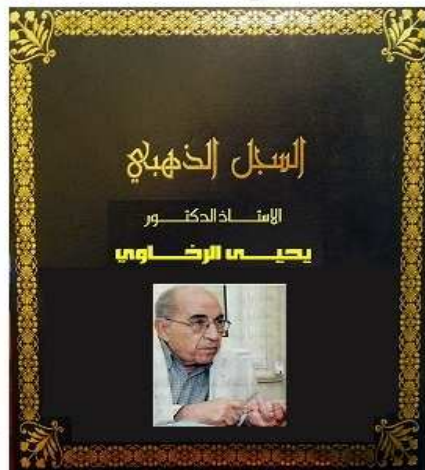
تدخل عامك التاسع

وتطعمنا شمعنا التامة



اجعل

التكافى



التكريم الحقيقى هو

ان تصل الكلمة الى اصحابها...

وحذى نشارك الجميع فى هذا التكريم اذعو من كل من عرف

الإسناذ الراوى (.. إنسانا إسناذ. عالما. طبيبا إديبا صاحبا آخا. إبا زوجا رفيقا. زميلا..). ان "يدون كلمة" فى حق هذا المالح العربى / العالمى الكبير..